

عنوان المحاضرة الرابعة: الحداثة في شعر بدر شاكر السياب

الأستاذة: خالص زهرة

1- حياة بدر شاكر السياب:

ولد بدر شاكر السياب عام 1926م بالعراق، عاش بالبصرة حياة مشبعة بالمرارة والألم فقد ماتت أمه وتزوج أبوه، فحرم لذة حنان الأم وعطف الوالد الذي انشغل بالزوجة الجديدة، ولم يكن وسيماً ولم يشعر بحب الفتيات له، رغم أنه أحب في بواكير حياته فمحبوبته الأولى تزوجت بغيره وتغزل بالشاعرة كمَيْعَة عباس تحت اسم وفيقة، المحبوبة الثانية التي ماتت، واستخدم اسم إقبال في إشارة إلى محبوبته الثالثة التي لم يتزوجها ويرى الدكتور يوسف عز الدين أن شعور السياب بالنقص جعله يكثر من النظم بالأسلوب الجديد في الشعر وهذا ما جعله يفوز بالريادة في هذا الفن.

توفي بدر في عام 1964م مخلفاً وراءه مجموعة كبيرة من القصائد التي أملت عليها تجاربه في مدى حياته، تجاربه في الحب والثورة والحاجة والحنين إلى الماضي والمرض الويبيل، فإبان حياته ظهرت له الدواوين التالية: "أزهار ذابلة" (1947)، "أساطير" (1950)، "حفار القبور" و"فجر السلام" (1952)، "الأسلحة والأطفال" و"المومس العمياء" (1954)، "أنشودة المطر" و"المعبد الغريق" (1960)، "منزل الاقنان" (1963) و"شناشيل ابنة الجليبي" (قبل وفاته بأيام قلائل (1964)، وبعد رحيله ظهرت له الدواوين

الآتية: "إقبال" و "إقبال شناسيل ابنة الجلبي" (1965) "قيتارة الريح" (1971) "أعاصير" (1972)، "الهدايا" و "البواكير" (1974)، ثم "أزهار ذابلة وقصائد مجهولة" (1981)

وقد قدر للسياب أن يكون واحداً من طلائعي الشعر الحديث وأكثر من ذلك فإنه أرسى الكثير من فنون التجديد في هذا الشعر، ستصبح بمثابة تقاليد أساسية، ولو اعتبرنا الفن ضربية يدفعها الفنان عن حبه وكراهيته وسخطه وغبطته وغرته ووطنه، لكان السياب من أكبر دافعي الضرائب في شعرنا الحديث.

ويتحدث السياب عن التجديد في الأدب أو الثورة الأدبية فيقول: «عندي أن الثورة الناضجة نوع من أنواع التطور... إنها إستعراض للماضي، للتراث، وإهمال الفاسد منه والسير بالشيء الحسن فيه إلى الأمام، فالثورة على القديم بمجرد أنه قديم جنون وانتكاس إذ كيف نستطيع أن نحيا وقد فقدنا ماضيينا ... ولا بد لكل ثورة ناضجة أن تبدأ بالمضمون قبل الشكل، فالشكل تابع يخدم المضمون والجوهر الجديد هو الذي يبحث له عن شكل جديد ويحطم الإطار القديم كما تحطم البذرة النامية قشورها.»

-ومما تضمنه شعر السياب في إطاره التجديدي من المرددات الشعبية:

الأساطير، والحكايات والأغنيات والأمكنة، إضافة إلى تأثره بالعقائد الدينية وطقوسها الشعبية، فأما عن الأسطورة فما يدفعه إلى استخدام الأسطورة في الشعر، هو اعتباره أن الألفاظ فقدت معانيها الأصلية في كل المجتمعات البشرية القائمة اليوم، بينما ظلت الأسطورة محتفظة بجدها ومعناها الأصيل.

2/ توظيف الأسطورة في شعر بدر شاكر السياب:

الأسطورة هي عبارة عن حادثة تاريخية، تجمع بين الواقع والخيال وبين الممكن والمستحيل وبين الخرافة والواقع، وهذه الأساطير أنواع منها يونانية مثل "سيزيف" رمز الإنسان المعذب المضطهد، ومنها بابلية مثل أسطورة "عشتار" آلهة الحب والعطاء والخصب والمطر ومنها ما هو عربي مثل أسطورة "مدينة السندباد". وقد أكثر السياب من استعمال الأسطورة في شعره حتى أصبحت جزءاً من القصيدة في بعض الأحيان، ويبرر هذا الاستعمال الزائد على أنه يعيش في عالم لا شعر فيه، أي أن القيم التي تسوده قيم لا شعرية، مما جعله يعيش فراغاً روحياً استدركه باستعمال الأساطير والملاحم.

ومن الأساطير التي استعملها السياب: عشتار وتموز، وسيزيف، ونرسييس وميدوزا وكونغاي والبايون، وهرقل، وغينميد، وأولمب، وأتيس، والعازر، زيوس، وأدونيس وسربروس وأوديب، وجوكست، وأفروديت، وهيلين، وأبولو،... والسندباد، وشهرزاد، وقمر الزمان .

فالأسطورة إذن إحدى وسائل التقاء السياب بالإنسان كما أن صورة هذا الالتقاء تتخذ ثلاثة أشكال هي: الثورة على العقم وطلب الخصب والمطر، الثورة على الحرب والتغني بالسلام ونزع السلاح، تصوير المأساة الإنسانية كما يراها بنفس ملحمي. السياب شاعر المأساة الإنسانية هذه المأساة تبدو منفتحة، فيما تتجلى في أحيان أخرى معتمة، منغلقة.

ولعل وقوع السياب أسيراً للأسطورة هو سبب هذه الغمة والانغلاق في بعض من قصائده فالأسطورة تكاد تكون فرعاً مستقبلاً بذاته في الدراسات الأدبية، ولذا يصعب على القارئ العادي فهمها والإلمام بجوانبها المتعددة.

كان السياب يعمد إلى الأساطير القديمة التي تزخر بألهة الإغريق وأبطالهم، كما أنه لم ينس الأساطير الشرقية مقتبساً منها ما يناسبه مشيراً إلى آلهة البابليين والأشوريين وغيرهم من الأمم القديمة، فقد يُخيل إلى القارئ وهو يقرأ مجموعة "أنشودة المطر" أن صاحبها مسيحي، ذلك أنه أكثر من استعمال لفظ "المسيح" في قصائده.

أما الأسطورة فهي ظاهرة عامة في الشعر المعاصر، ودعاة الأسطورة يبررون صنيعهم بالرمزية والبحث عن ألفاظ طرية وتعابير بكر لم يلوثها الاستعمال. وأما مُناوئوها فيرون الأساطير وكل الميثولوجيا في الأدب إنما هي جانبه المتخلف.

وقد كان السياب ممن دعوا إلى استعمال الأسطورة والإكثار منها، وقد كانت الأساطير المستعملة عنده تمثل فلكلوراً مستورداً فهي لم تكن في حقيقة أمرها من الفلكلور العراقي ولا العربي، مما جعل كثيراً من النقاد يقرون بفشل عملية الإستيراد لدى السياب.

ولعل ابتعاد بعض القراء العرب عن بعض القصائد التي ترد فيها الأساطير يرجع إلى سببين: أولهما: ارتباط الأسطورة في بعض الأماكن بالوثنية، ومعلوم أن القارئ المسلم الذي يمثل غالبية جمهور

المتلقي العربي، لا يريد أن يقرأ ما فيه وثنية من قريب أو من بعيد، وثانيهما: أن الأسطورة في ذهن الشاعر وفي قصيدته قد تعني شيئاً، ثم يتلقاها القارئ بمعنى ومفهوم آخرين ومن هنا تضيع الرسالة التي يجب أن تنقلها القصيدة إلى القارئ.

3-دواعي استخدام السياب للأسطورة والرمز:

لقد استخدم الرمز والأسطورة لسببين:

1- سبب فني: إذ يقول السياب: "لم تكن الحاجة إلى الرمز، إلى الأسطورة، أمس مما هي اليوم فنحن نعيش في عالم لا شعر فيه، أعني أن القيم التي تسوده قيم لا شعرية، والكلمة العليا فيه للمادة لا للروح"، إذن فالتعبير المباشر عن اللاشعور، لن يكون شعراً، فماذا يفعل الشاعر إذن؟ عاد إلى الأساطير، إلى الخرافات التي ما تزال تحتفظ بجرارتها، لأنها ليست جزءاً من هذا العالم، عاد إليها ليستعملها رموزاً، وليبني منها عوالم يتحدى بها منطق الذهب والحديد. كما أنه راح، من وجهة أخرى، يخلق له أساطير جديدة، وإن كانت محاولاته في خلق هذا النوع من الأساطير قليلة حتى الآن.

ويقول أيضاً: «إن الشاعر الآن يعيش أزمته الكبرى أنه يعيش في عالم لا يعطيه سوى علاقات متدهورة بين الإنسان والإنسان، وسوى تعكير وتحطيم مستمر لوجوده وإنسانيته. إن واقعنا لا شعري ولا يمكن التعبير عنه باللاشعر أيضاً، إن الأسطورة الآن ملجأ دافئ للشاعر. وإن نبعها لم ينضب ولم يستهلك بعد، ولهذا تراني أُلجأ إليها في شعري كثيراً».

إذن عاد الشاعر إلى وظيفة الأسطورة القديمة: لإرضاء حاجته الروحية من جهة وحاجته إلى التوازن مع المجتمع حوله من جهة أخرى.

2- سبب سياسي: حيث يقول السياب: "لعلني أول شاعر عربي معاصر بدأ باستعمال الأساطير ليتخذ منها رموزاً، كان الدافع السياسي أول ما دفعني إلى ذلك فحين أردت مقاومة الحكم الملكي السعيدى بالشعر اتخذت من الأساطير ما كان زبانية نوري السعيدى ليفهموها ستاراً لأغراضى، كما أنى استعملتها للغرض ذاته فى عهد عبد الكرىم قاسم فى قصيدتى "سربروس فى بابل" هجوت قاسما ونظامه أبشع هجاء دون أن يفطن زبانيته لذلك، كما هجوت النظام أبشع هجاء فى قصيدتى الأخرى "مدينة السندباد" وحين أردت أصور فشل أهداف ثورة تموز استعصت عن اسم تموز البابلى بأدونيس اليونانى الذى هو صورة منه."

استخدم السياب الأسطورة لفرض التخفى السياسى مأخذاً عليه وعلى من رأى رأيه، لأنه يفسد القيم الفنية فيها. فالفنان يتخذ من الرموز وسيلة للإخفاء أو المراوغة إنما هو إنتقاص بالغ لما يجدر بالفنان أن يفضى إليه.

والشاعر دائماً لا يخاطب جميع الناس وإنما يخاطب النخبة منهم، إذ لا تناقض بين التعقيم لغرض سياسى وفنية القصيدة، ولو كان الأمر مقترناً بالإيضاح لوجب أن تكون القصيدة المباشرة هى الفضلى، فوظيفة الرمز دائماً مزدوجة تؤدي غرضين فى آن معاً تبهم لتفهم، وتعم لتكشف، والشاعر

دائماً يعطي مفاتيح لرموزه، فلا تكون قصيدته صريحة تقديرية يفهمها جميع الناس، وعندها تكون ذات دلالة واحدة محددة غير قابلة للتأويل، إذن الرمز ضرب من الغموض الفني الذي يكون مفجراً لذهن المتلقي بمستوياته المختلفة من أجل فهمه، والوصول إلى المعنى العميق في نفس الشاعر، فيكون تأثيره عميقاً ضاعطاً بعيد المدى بقدر تعب المتلقي في الوصول إلى دلالاته وإيجاءاته معتمداً على حدسه.

المراجع:

- يوسف عز الدين، التجديد في الشعر العربي الحديث بواعثه النفسية وجذوره الفكرية، ط1، جدة، م1986.
- بشير العيسوي، دراسات في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م.
- عبد الجبار داود البصري، بدر شاكر السياب، رائد الشعر الحر، دار الجمهورية، بغداد، 1966م.
- عبد الجبار داود البصري، بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر، دار الجمهورية، بغداد 1966م.
- جليل كمال الدين، الشعر العربي الحديث وروح العصر، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1964م.